توفي منذ ايام المفكر الكبير المستشار محمد سعيد العشماوي، وهو مثل غيره من المفكرين له وعليه ولكن كانت له صولات وجولات مع الحركات الاسلامية في اطار تصحيح المفاهيم المغلوطة وما اكثرها، اخترت احدى مقالات العشماوي رحمه الله في الاسفل وفيها استعراض مبسط للعلمانية وتفرقة بين العرب والاعراب وغيرها من الافكار العميقة.

تحياتي

حسام

العالمانية والإستنارة

الثقافة العربية ثقافة شفهية ، أدنى إلى التشافة والتخاطب والتحادث منها إلى التحرير والكتابة والتدوين . وقد كانت أغلب الثقافات شفهية كذلك ، غير أنها تطورت مع الوقت ، وتقدمت عبر التاريخ ، حتى صارت لا تعتمد القول إلا إذا كان موثقاً ، ولا تلتزم الحديث إلا إذا كان مُحققا ، ولا تتّبع الخطاب إلا إذا كان مُدققاً .

ويظهر عوار الثقافة الشفهية فى أنها لا تضع تعريفا ولا تلتزم حدودا ولا تتبع بيانا ، لكل لفظ تستعمله ، فيكون الكلام من ثم غامضا أو يؤدى إلى نزاع وصراع وخداع ، لم يكن ليوجد أصلا لو حَدّدت الأطراف معنى اللفظ الذى يستخدمونه أو التزموا توصيفاً لما يقصدونه منه .

وأهم مثل على ذلك ، فى الوقت الحالى ، لفظ العالمانية ؛ ذلك بأن البعض يقصد به الكفر والإلحاد ، بينما يرمى آخر به إلى فصل الدولة عن الدين ، ويهدف به البعض إلى منع سطوة الكهانة على المجتمع ، ويستعمله آخر بمعنى كل ما هو منسوب إلى العلمْ ..... وهكذا .

وأصل اللفظ " عالمانى " نسبة إلى العالم ، وليس علمانى تصريفا من العلم .وهو بالإنجليزية (Secular) ، وبالفرنسية (Saeularis) ، وباللاتينية (Secularia) أو (Saeculum) ، بعدة معان منها (1) الاهتمام بما فى هذا العالم (2) غير كنسى ولا ديرانى (نسبة إلى الأديرة) (3) ليس مقيداً بقاعدة دينية . ولأن أفضل تفسير للألفاظ هو إتباع نشأتها وتطورها التاريخى ، وهو مالم يتخصص فيه مُعجم (قاموس) بالعربية ، فإنه لابد لبيان وتعريف وفهم وتحديد لفظ العالمانية ، من اتباع المنهج التاريخى فى أصله وتطوره .

فى بداية المسيحية ، عندما نشأت الديانة المنظمة (Organized Religion) وجُدت الكنائس والأديرة ، وكان الأصل فى الموجودين بها والقائمين عليها أنهم من رجال الدين (الإكليروس Clergy) الذين يخضعون فى كل كبيرة وصغيرة إلى القانون الكنسى (Ecclesiastic) . وكان يعمل فى أغلب الكنائس وأكثر الأديرة ، رجال مدنيون (Civic) لا يخضعون للنظام الكنسى ولا يتبعون القواعد التنظيمية التى يلتزمها غيرهم من رجال الدين (الأكليروس Clergy) وإنما يغادرون الكنائس والأديرة بعد أدائهم لأعمالهم ، ومن ثم أطلق على هؤلاء لفظ " عالمانين " بيانا بأنهم يخضعون إلى العالم الدنيوى (المدنى) وقوانينه وإجراءاته ، ولا ينتسبون إلى رجال الدين (الأكليروس Clergy) ولا ينطبق عليهم القانون الكنسى .

ظل الوضع واضحا محددا مميزا ، إلى أن بدأ الملوك فى الإستعانة برجال الدين لتسيير أعمال الدولة ، فخلطوا ، واختلط الناس معهم ، فى صفة ما يصدرونه من قرارات أو أوامر أو لوائح ، إذ كان الملك (ورجل الدين معه) يجنحون إلى الخلط بين صفته الدينية وصفته المدنية (حين يحكم ويباشر أعمال السياسة) بينما كان الناس (والمستنيرون منهم بوجه أخص) يرون أن أعماله الدنيوية لا تتحصن بصفته الدينية ، وإنما تكون أعمالا مدنية (Civic) صرف .
وأهم مثال على ذلك هو الكاردينال رشيليو الذى عينه لويس الثالث عشر ملك فرنسا رئيساً للوزراء ليحتمى بصفته الدينية من توجيه أى نقد إلى ما يصدر عنه من أعمال فى تصريف شئون الدولة ، على تقدير أنه أبرمها بصفته الدينية (لا المدنية) ومن ثم فإنها لا تقبل الطعن أو النقض أو التجريح .
عمل المستنيرون فى فرنسا (بالذات) على وضع خط فاصل بين أعمال الحاكم الدينية وبين أعماله المدنية ، وهو فى حقيقة الأمر ما يعنى الفصل بين الدين والسياسة ، لكن منذ الوهلة الأولى حدث خطأ فى الفهم وفى التعبير فقيل عن الفصل بين الدين والسياسة إنه فصل بين الدولة والدين .
وربما عزز فكرة الفصل بين الدين والدولة ، أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تستعين بسلطة الدولة لفرض قيمها وآرائها وقيودها وفهمها على التعليم وعلى المجتمع وعلى البحث العلمي وما شابه .

فى السلطنة العثمانية حدث فصل بين سلطة الخليفة الروحية وسلطته الدنيوية (فى الحكم) عام 1922 . وفى 3 مارس 1924 ألغى كمال أتاتورك منصب الخلافة ، وقال إنه سوف يقيم فى تركيا دولة عالمانية (Secular State) . ولأن المسلمين كانوا يعتقدون أن الخلافة الإسلامية هى رمز الإسلام وتجسيد له ، فقد اعتبروا أن الغاءها ضرب من الإلحاد وفهموا لفظ العالمانية فى هذا المعنى .

ترجم بعض اللبنانيين لفظ (Secularism) إلى العَلمانية بفتح العين ، ولكن لأن الصحافة – غير الكتب – لا تراعى التشكيل ، فقد قرأ وفهم أغلب المسلمين لفظ العلمانية على أنه صفة من العلم ، وأن العلم بذلك يناقض الدين ، ونطقوه عِلمانية (بكسر العين) وسار هذا الخطأ حتى ترسخ ، وصار أساس الفهم والتقدير بين بعض أساتذة الجامعات وكثير من الكتاب والمفكرين ، ولذلك فقد حرصنا للخروج من هذا المأزق والخلط والاضطراب ، إلى أن نكتب اللفظ – أخيراً – عالمانية ، وحاولنا جاهدين أن نبين الحقيقة والاختلاف بين نطق اللفظ بكسر العين ونطقه بفتح العين ، ولات حين خلاص . ذلك أن أغلب الكتاب لا يقرأون لغيرهم وإن قرأوا لا يعدلون إلى صواب أقره أحدهم أو بيّنه لهم . أما عن الشعوب العربية فهى – لثقافتها الشفهية – تجرى على السمع الدارج ولا تحاول تقصى الحقيقة أو بيان الصواب .

لاحظت أستاذة مساعدة فى جامعة برلين (تحرر رسالة عن آرائى وأفكارى) أنى لم أستعمل لفظ العلمانية قط ، وسألتنى فى ذلك فشرحت لها وجهة نظرى ، وأن للفظ العالمانية معناه

المحدد فى تاريخ المسيحية ، أما فى الاسلام فقد صار اللفظ قرين الإلحاد منذ أن استعمله مصطفى أتاتورك واصفا به نظام الدولة الذى شيده بعد الغاء الخلافة . ومن يطالب بالعلمانية أو يصف أعماله بها فكأنه يبدأ بالمجاهرة بأنه ملحد ، ولا يمكن لمن يقع فى هذا الخطأ أن يكون له أى تأثير إصلاحي . فتساءلت عن سبب استمساك الكتاب العرب والمسلمين بلفظ العالمانية بعد أن أوضحت لهم خطأ الاستعمال . فقلت لها : إن الذيوع والشهرة فى العالم العربى تنبنى على العلاقات والاتصالات أكثر مما تركن إلى الكفاية وصدق وفهم وعمق التعبير ، وأغلب الكتاب يعرفون ذلك ويحرصون عليه ، ومن ثم فإن العلاقات والاتصالات تستغرق وقتهم فلا يبقى لهم منه إلا أقل القليل ، ما يسمح لهم بكتابة مقال ، يجرى على تكرار ما قالوه وكتبوه أو على تلصيق الأحداث الجارية وإبداء رأى سطحى فطير عليها ، إن كان لهم فيه رأى .

الاستنارة هى طلب النور ، والنور هنا نور عقلى وروحي ونفسى هو فى صحيحه المعرفة الخالصة ، والمعرفة المقدسة ، والاستنارة هى اتجاه الدين – فى كل شرائعه – وأهم أهدافه ، وفى القرآن (هو الذى يُخرجكم من الظلمات إلى النور) . لكن لظروف تاريخية بدأت السرايا والغزوات والحُروب والقتالات مع المسلمين منذ الهجرة إلى المدينة ، واستمرت على نحو ما طوال التاريخ وربما حتى اليوم . ونتيجة الحروب والقتالات المستمرة غلبت الأعراب العرب . والعرب هم من كانوا يقطنون الحضر (أى المدن أو القرى) أما الأعراب أو الأعاريب فقد كانوا يقيمون فى المدر (أى الصحارى) بدو (ومفرد البدو بدوىّ) ، وهم أصحاب نجعة وانتواء وارتياد للكلأ وتتبع لمساقط المياه . وقد قدموا على النبى (صلعم) طمعا فى الصدقات لا رغبة فى الاسلام . وثم قول ينسب إلى النبى يجرى على أنه من الكبائر ثلاث منها التعرب بعد الهجرة . وإزاء ذلك كان من رجع بعد الهجرة (من المدن أو القرى) إلى البادية من غير عذر ، عُدّ كالمرتد (لسان العرب ، مادة عرب) .

فإذا كان الذين قاموا بالغزوات الاسلامية خارج مكة والمدينة أغلبهم من الأعراب ، وإن كان قادتهم عرب ، فقد أدخل هؤلاء الأعراب على الغير آراءهم وأعمالهم وتقاليدهم ومفاهيمهم على أنها هى الإسلام . وإذ كان الحكم قد وقع فعلا وواقعا منذ القرن الثانى الهجرى فى حجور الفرس ثم الأتراك (وأصلهم من التتار والمغول)، وهم من ثم عجم غير عرب ، حتى عام 1924 ، بدت الحاجة ماسة إلى التنوير الذى يرفع الفكر الأسود عن الفكر الأبيض .
يضاف إلى هذا أنه منذ عهد الفتنة الكبرى ، والمسلمون يعيشون فى ظروفها وشعاراتها . فالمعارضة تتهم الحكام فى كل مكان وأى زمان بالكفر والالحاد ، وهم يستندون إلى آيات انتزعوها من السياق القرآنى . والحكام يكبحون أى معارضة لهم – ولو كانت على حق – بآيات ينتزعوها خطأ من السياق القرآنى . لذلك وذلك ، فإن أى اصلاح اسلامى لابد أن يقوم على فصل الدين عن السياسة حتى لا يتمحل به حاكم ولا يتمحك به معارض .
وهذا هو لب الاستنارة وصميمها.